

بلاغة التصلية في التراث العربي الإسلامي - من الوظيفة التعبديّة إلى الوظيفة العجائيّة -

الدكتور عبد الفضيل ادراوي⁽¹⁾

ملخص:

تروم هذه الدراسة الدفاع عن وجهة نظر يزعم صاحبها أن خطاب التصلية في التراث العربي الإسلامي يتجاوز مجرد كونه طقساً تعبدياً محدوداً، تنحصر وظيفته في ترجمة الاستجابة الإيمانية للشخص في علاقته بنصوص وحيانية عديدة نادت إلى ترديد التصلية وتكرارها؛ بوصفها ذكراً مباركاً مثاباً عليه.

فخطاب التصلية يبدو شكلاً تعبيرياً بسيطاً ومختزلاً، ثريّ بطاقات تعبيرية هائلة، يسلك نهجاً بلاغياً نوعياً؛ ما يمنحه هوية تواصلية خاصة تجعله يرتقي إلى أن يكون بوابة تربوية اعتمدت لترسيخ العقيدة الحقّة في نفسيّة المؤمن، خاصة عبر صيغة التصلية الكاملة غير البتراء، التي تقترن فيها الصلاة على الرسول ﷺ والصلاة على أهل بيته ﷺ.

(1) باحث في الفكر الإسلامي، وأستاذ في كلية الآداب- تطوان، المغرب.

كلمات مفتاحية:

الإسلام، الولاية، التصلية، الدعاء، الذكر، التراث، التعبد، الحجاج، البلاغة.

مقدمة:

تعدّ التصلية من أبرز صيغ الذكر والدعاء في التراث العربي الإسلامي، وهي من الملفوظات الأساس التي لها إجلال خاص في وجدان المسلم⁽¹⁾. ومن يتأمل المأثور من كلام الرسول ﷺ والأئمة عليهم السلام، يجد احتفاءً بيّناً بهذه الشعيرة، التي وردت بصيغ مختلفة، حائزة قدرًا لا يستهان به من الحيوية الإبداعية، والطاقة التعبيرية الخاضعة لوعي جمالي، يُسخر أرقى الإمكانيات البلاغية المتاحة، ويوظف أثرى الصيغ الأسلوبية الممكنة التي تجعلها تغتني بأبعاد تربوية تخليقية، ومرام تأثيرية حجاجية عميقة، تتواشج تمامًا مع منطق الأدوار الرسالية الدقيقة المنوطة بالرسول ﷺ والأئمة عليهم السلام في المجتمع الإنساني.

أولاً: التصلية شكلاً شرعياً بسيطاً:

التصلية في معناها البسيط تخصيص الرسول ﷺ وأهل بيته عليهم السلام والأنبياء والأولياء عليهم السلام بالدعاء والتزكية، وفق كيفية حدّدت خطوطها العريضة نصوص الوحي وتوجيهاته. فهي شكل بسيط، يقوم على الاختزال

(1) لقد خصّص صاحب الشفا فصولاً بأكملها لبيان فضيلة التصلية، وكونها من موجبات المغفرة والشفاعة. انظر، مثلاً: ص 66 (فصل في كيفية الصلاة عليه)، ص 72 (فصل في فضيلة الصلاة عليه)، ص 75 (في ذم من لم يصل عليه)، ص 77 (في تخصيصه بتبليغ صلاة المصلين). وهي فصول تتضمّن روايات عديدة ومتواترة، وتشكل دعامة أساساً لفهم أهميّة نصوص التصلية في المخيال العربي الإسلامي، وارتقائها إلى مستوى الحجّة الإقناعية المسلم بها في سياق التخاطب الإسلامي. (انظر: القاضي عياض (ت544هـ): الشفا بتعريف حقوق المصطفى ﷺ، تحقيق: عبد السلام محمد أمين، ط2، بيروت، منشوات محمد علي بيضون؛ دار الكتب العلمية، 2002م، ج2). وفي السياق نفسه يُورد ابن القيم الجوزية مورداً مطوّلاً من كتابه في فضل الصلاة والسلام على خير الأنام ﷺ. (انظر: جلاء الأفهام في فضل الصلاة والسلام على خير الأنام ﷺ، تحقيق: زائد بن أحمد النشيري، دار عالم الفوائد، لا ت).

والاختصار، «لا يتجاوز الكلمات المعدودة»⁽¹⁾، له غاية تعبدية محضة، يعكس الدلالة القريبة للممارسة الدينية أو (فقه المناسك)، بما هو ملفوظ مباشر يقصد به السلام على الرسول ﷺ والأنبياء والصالحين عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، والدعاء لهم والسلام عليهم، وربط الصلة بهم وعدم قطيعتهم. فهي إذن ملمح من ملامح التعبد، وصيغة محددة من صيغ الذكر، تجد أصلها في القرآن الكريم: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾⁽²⁾. فهي صيغة توقيفية، يمكن أن نقول عنها إنها صيغة بسيطة تؤول إلى صورة تلفظية أساس: «اللهم صل على محمد وآل محمد؛ كما صليت على إبراهيم وآل إبراهيم، وبارك على محمد وآل محمد؛ كما باركت على إبراهيم وآل إبراهيم في العالمين، إنك حميد مجيد»⁽³⁾. وهي صيغة متواترة وشائعة، نظراً إلى طابعها التعبدية والتعليمي، مطلوبة في الصلوات اليومية، وهي من أجزاءها، لا تتم الصلاة من دونها، بحسب ما هو مقرر ومأثور بين المسلمين. فهي بهذا المنظار، وبعبارة أ.مونتاندون خطاب يبدو فيه «اللفظ محيلاً على مضمون أكثر مما يحيل على تقنية في التأليف»⁽⁴⁾. وهي شكل تعبيرية بسيط، بالنظر إلى تقاليد في طريقة التركيب، وفي طبيعة الأسلوب. فالأشكال البسيطة - كما يرى أ. يولس - ترتبط بما هو شفهي، ولا ترقى إلى مستوى الجنس الأدبي المركب والممتد. والبسيط عنده يتميز بكونه يؤسس لتقاليد جديدة غير محددة ولا متوافق عليها في عرف الأجناس، وهو من حيث منتجه أو مرسله لا يرتبط بمنتج معين ومعروف⁽⁵⁾.

(1) البستاني، محمود: القواعد البلاغية في ضوء المنهج الإسلامي، ط1، مشهد، منشورات مجمع البحوث الإسلامية، 1414هـ-ق، ص290.

(2) سورة الأحزاب، الآية 56.

(3) البخاري، محمد بن إسماعيل: صحيح البخاري، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، 1401هـ-ق/1981م، ج1، ص190.

(4) Alan Montandon, Les formes brèves, Ed. hachette, 1992, p. 59.

(5) André Jolles, Formes simples, (Traduit de l'allemand par Antoine Marie Buguet), Ed. seuil, Paris, 1972, p.58.

وتبعًا لبساطة صيغِ التصلية فقد عُدَّت من تفرّيعات الذِّكر والدعاء، وعرفت حضوراً بيّناً في جلّ الخطابات والأجناس الأخرى؛ كالخطب، والرسائل، والقصص، وغيرها. بل إنَّها صارت بمثابة اللازمة المعنويّة واللفظيّة التي لا يتخلّى عنها الكتاب. وقد عدّها البعض بمثابة التهييء الروحيّ لتحقيق المطالب ونيل الحاجات؛ ف«الصلاة على النبي وآله وصحبه المنتجبين مقدّمة فضلى ومباركة لقبول أيّ طلب»⁽¹⁾.

غير أنّ التصلية في هذا المستوى تكون مجردّ موضوعة جزئيّة واردة ضمن التشكيل الفنّي لهذا النوع أو ذاك. وفي مستوى آخر، تتواتر التصلية محقّقةً نصوصاً متعدّدة، ذات هوية بلاغيّة خاصّة، ينجذب جانب منها نحو المحاينة والتجريد، وينجذب جانبها الثاني نحو المغايرة والتنوع. فتعرف غنىً بيّناً وثراءً لافتاً من حيث تنويعاتها الفنيّة، وطرق تشكّلها وفق سياقات خطابيّة وتداوليّة عديدة، تختلف لغةً ودلالةً وحجماً؛ الأمر الذي يبرّر تخصيص هذا النمط من القول بمعاينة بلاغته النوعيّة، وقياس طاقاته التعبيريّة التداوليّة في سياق التواصل الإنسانيّ.

ثانياً: التصلية وسمات التواصل والتلاقي:

يبدو خطاب التصلية وسيلة تربيويّة تروم تحقيق الغايات والمرامي الترشيدية التخليقيّة المنشودة نفسها في منظومة الفكر الإسلاميّ. فهي في جوهرها تجسيد عمليّ وتحقيق فعليّ لربط أواصر التواصل بالأنبياء والصالحين والأولياء عليهم السلام، وإعلان الارتباط بهم والكينونة معهم؛ «وَأَمْضِي مَعَ الْفَائِزِينَ مِنْ عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ»، «فَسُقْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ وَفِي زُمْرَةِ أَوْلِيَائِكَ الْمُتَّقِينَ»⁽²⁾، «أَتَيْتُكَ بِأَبِي وَأُمِّي زَائِرًا

(1) الأسدن، جاسم: الدعاء أمل وعتاء، ط1، منشورات ناظرين، 2004م، ص238.

(2) مقطع وارد في زيارة النبي ﷺ عن بعد. انظر (القمي، عباس: مفاتيح الجنان، ويليه الباقيات الصالحات، تعريب: محمد رضا النوري، ط2، منشورات دار الثقلين، 1998م، ص395).

عَارِفًا بِحَقِّكَ مُوَالِيًا لِأَوْلِيَائِكَ»⁽¹⁾. وهذا في حدّ ذاته سلوك منشود ومبتغى في منظومة الفكر الإسلامي عمومًا؛ بما هو ممارسة لتثبيت الخطّ العمليّ للعقيدة الإسلاميّة؛ كما جسّدته تلكم النماذج الصالحة التي استحقّت التخليد بالتصلية والتسليم.

إنّ كلّ شخصيّة مقدّسة استطاعت أن تثبت اسمها في الذاكرة الإسلاميّة على مرّ التاريخ، تحظى بواجب التذكّر والاستحضار والتخليد، عبر الصلاة والتسليم عليها؛ سواء أكانت مفردة أم ضمن جماعة من الصالحين؛ لأنّها فرد «من السلف الصالح، وفرد من الأسرة المسلمة الممتدّة عبر توالي الأجيال»⁽²⁾. في الزيارة الجامعة الصغيرة⁽³⁾:

«اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، السَّلَامُ عَلَى أَوْلِيَاءِ اللَّهِ وَأَصْفِيَاءِهِ، السَّلَامُ عَلَى أُمَنَاءِ اللَّهِ وَأَحِبَّائِهِ، السَّلَامُ عَلَى أَنْصَارِ اللَّهِ وَخَلَفَائِهِ، السَّلَامُ مَحَالٌّ مَعْرِفَةِ اللَّهِ، السَّلَامُ عَلَى مَسَاكِنِ ذِكْرِ اللَّهِ، السَّلَامُ عَلَى مَظْهَرِي أَمْرِ اللَّهِ وَنَهْيِهِ، السَّلَامُ عَلَى الدُّعَاةِ إِلَى اللَّهِ، السَّلَامُ عَلَى الْمُسْتَفْرِّينِ فِي مَرَضَةِ اللَّهِ، السَّلَامُ عَلَى الْمُخْلِصِينَ فِي طَاعَةِ اللَّهِ، السَّلَامُ عَلَى الْأَدْلَاءِ عَلَى اللَّهِ، السَّلَامُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ وَالَاهُمْ فَقَدْ وَآلَى اللَّهُ، وَمَنْ عَادَاهُمْ فَقَدْ عَادَى اللَّهُ، وَمَنْ عَرَفَهُمْ فَقَدْ عَرَفَ اللَّهُ، وَمَنْ جَهَلَهُمْ فَقَدْ جَهَلَ اللَّهُ، وَمَنْ اعْتَصَمَ بِهِمْ فَقَدْ اعْتَصَمَ بِاللَّهِ، وَمَنْ تَخَلَّى مِنْهُمْ فَقَدْ تَخَلَّى مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَأَشْهَدُ اللَّهُ أَنِّي سَلِمٌ لِمَنْ سَأَلْتُمُ وَحَرْبٌ لِمَنْ حَارَبْتُمْ، مُؤْمِنٌ بِسِرِّكُمْ وَعَلَانِيَتِكُمْ، مُفَوِّضٌ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ إِلَيْكُمْ، لَعَنَ اللَّهُ عَدُوَّ آلِ مُحَمَّدٍ مِنَ الْجَنِّ وَالْإِنْسِ، وَأَبْرَأُ إِلَى اللَّهِ مِنْهُمْ، وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ».

يجسّد نص التصلية استحضاراً مباشراً للصالحين، ولذكرياتهم الإيمانيّة، وما يقترن بذلك من سلام ودعاء وشهادة. وفيها يعبر المتحدث عن مشاعره

(1) م.ن، ص 578 (مقطع وارد في زيارة الإمام الرضا عليه السلام).

(2) الأصفى، محمد مهدي: الدعاء عند أهل البيت عليهم السلام، ط2، قم، المركز العالمي للدراسات الإسلاميّة،

1422هـ، ص 302

(3) القمي، مفاتيح الجنان، م.س، ص 617.

التبجيلية الصادقة تجاه هذه الأمة من المؤمنين التي سبقتها بالإيمان، واستحقت الثناء؛ لأنها نالت الاصطفاء الإلهي بإخلاصها. فقد أقامت الصلاة، وأدّت الزكاة، وأمرت بالمعروف، ونهت عن المنكر، ونهضت برسالة الدعوة إلى توحيد الله، وعبّدت الناس لله الأحد، ورفعت كلمة التوحيد، ومهدت الطريق للأجيال اللاحقة. فكأنّ المصلّي يعبر عن وفائه لذلك، ويردّ هذا الجميل، عبر مشاعر السلام والحبّ التي يعلنها تجاه السلف، ويبغي تحقيق التواصل معهم.

فتبدو التصلية من هذه الناحية عملاً تربوياً وترشيدياً، يساهم في إقامة جسور التواصل بين الأجيال والأفراد، «ليتعارفوا ويتآلفوا، ثمّ تطبع في قلوبهم روح الانقياد إلى الله والانقطاع إليه وطاعة أوامره»⁽¹⁾؛ ما يساهم في تحقيق «التواصل» و«التوارث» و«التسالم» و«التحاب» و«التلاقي» بين أجيال الموحّدين، ورموز الصلاح والتقوى، وخاصة القادة منهم.

فتجسّد التصلية هذا الترابط بين الأجيال، وتعبر عن مشاعر الخلف تجاه السلف؛ بما ييلور «اللقاء بين أجيال المؤمنين»⁽²⁾ ويمتّن «رابطة الولاء والمحبة بين الأئمّة وأوليائهم وبين أفراد المجتمع في ما بينهم»⁽³⁾. وهذا يحقّق التواصل بين الخلف والسلف، وبين الحاضر والماضي، وبين الأحياء والأموات.

ثالثاً: التّصلية وذهول التسليم لجلال المخاطب:

إنّ المصلّي في توجّهه إلى مخاطبه، المعني بالتصلية والسلام، لا يعلن عن مطالبه الخاصة ولا يهتمّ بها، وإنّما ينقلها إلى الشخصية التي يخاطبها ويصليّ ويسلم عليها، فهو يثق بأنّ هذه الشخصية المخاطبة، سابقة عليه زمنياً؛ وهي متقدّمة عليه في الإيمان؛ ما يجعلها مؤهلة لمساعدته في

(1) المظفر، محمد رضا: عقائد الإمامية، ط9، بيروت، دار الصفوة، 1993م، ص126.

(2) الأصفى، الدعاء في مدرسة أهل البيت عليهم السلام، م.س، ص302.

(3) المظفر، عقائد الإمامية، م.س، ص126.

تحقيق مطالبه، ويرى لها الكفاءة والأهليّة للنيابة عنه، فتستحقّ منه الوفاء والإخلاص، والعهد بمواصلة السير على النهج نفسه، ويطمح في نيل الشفاعة منها واستحقاق عطفها: «... فَاشْفَعُوا لِي عِنْدَ اللَّهِ، وَاسْتَنْقِذُونِي مِنْ ذُنُوبِي عِنْدَ اللَّهِ، فَإِنَّكُمْ وَسَيْلَتِي إِلَى اللَّهِ، وَبِحُبِّكُمْ وَبِقُرْبِكُمْ أَرْجُو نَجَاةً عِنْدَ اللَّهِ، فَكُونُوا عِنْدَ اللَّهِ رَجَائِي، يَا سَادَتِي يَا أَوْلِيَاءَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ، وَلَعَنَّ اللَّهُ أَعْدَاءَ اللَّهِ ظَالِمِيهِمْ مِنَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ، آمِينَ رَبَّ الْعَالَمِينَ...»⁽¹⁾.

فيبدو كيف يؤثّر نصّ التصليّة جانباً من بلاغته النوعيّة؛ بالتركيز على سمات التواصل واللقاء التي يرغب المتكلّم في إقامتها ونسج خيوطها، ويوليها أهميّة أكثر من مطالبه وحاجيّاته الخاصّة.

بل إنّ المطالب الشخصيّة تغدو هي الأخرى تصبّ في خانة إعلان الولاء والجهر بالانضمام لخطّ هذه الشخصيات المُخاطبة، وإعلان البراءة من أعدائها، دليلاً على إثبات الوفاء والإخلاص. بل إنّ المصلّي يرى في ذلك جوهر التعبّد وصميم التقرب إلى الله. لذا فهو كثيراً ما يوظف أجواء الخطاب وروحانيّته، للاعتراف بتقصيره أمام الله، ويعلن أنّ قصده من صلاته على الصالحين وسلامه عليهم؛ إنّما هو عمل في سبيل إحياء رسالة هؤلاء الذين سبقوه، وفي سبيل إبقائها متجدّدة:

«... وَهَذَا مَقَامٌ مَنْ أَسْرَفَ وَأَخْطَأَ وَأَسْتَكَانَ، وَأَقْرَبَ بِمَا جَنَى، وَرَجَا بِمَقَامِهِ الْخَلَاصَ ... اللَّهُمَّ اجْعَلْ لِي لِسَانَ صَدَقٍ فِي أَوْلِيَائِكَ الْمُصْطَفِينَ، وَحَبِّبْ إِلَيَّ مَشَاهِدَهُمْ وَاجْعَلْنِي مَعَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ»⁽²⁾.

ومن السمات النوعيّة لنصوص التصليّة: اعتمادها صيغة الخطاب المباشر، واستحضار الشخصيات المعنيّة بالتصليّة عبر توظيف أفعال كلاميّة بصيغ تتعدّد ملفوظاتها، لكنّها تتحد في تحقيق الاستحضار المباشر

(1) القمي، مفاتيح الجنان، م.س، ص 165.

(2) م.ن، ص 559.

للشخصية؛ فيتوجه إليها بالأمر؛ (فكونوا لي..)، (فاشفعوا لي)، وبالنداء (أيها النبي- يا أمين الله-يا حجة الله -يا ولي الله- يا سادتي..)، وغيرها من الأساليب التي تتيح المخاطبة المباشرة والتموضع في محضر المخاطب؛ بما يجعله شاخصاً حاضراً، وفي مقام من (يسمع الكلام ويرد السلام).

هذا الإجراء البلاغي يتيح للمتكلم انتهاج خطاب المحاورة الانفرادية التي يستحضر من خلالها الشخصية ويكلمها مباشرة، ويثني على مناقبها ويتقرب منها؛ رجاء استحقاق الشفاعة، ونيل القرب منها. وهذا في حد ذاته مظهر حجاجي، مفاده الإقناع بتميز هذه الشخصيات، وبيان قيمتها وجلالها وقداستها، من جانب، ثم تثبيت ثقافة التواصل والارتباط بها عبر التصلية بعد موتها، فأحرى أن تكون واجبة الاتباع والامتثال في حياتها ووجودها بين الناس.

كما تعتمد التصلية نفساً ترشيدياً تخليقياً من خلال التركيز على ذكر مآثر السابقين وأخلاقهم وجهادهم وتضحياتهم في سبيل نصره الحق، وإخلاصهم في الانقياد لله وتوحيده وإعلاء كلمة الدين؛ ما يجعل معاينة البلاغة النوعية لهذا الخطاب مرتكزة إلى وظيفيتها التأثيرية؛ بالسعي نحو الإصلاح الاجتماعي والتوجيه التربوي والأخلاقي.

رابعاً: التصلية الكاملة والعمق الحجاجي:

من الأمور اللافتة في صيغ التصلية نفسها الحجاجي، وحماسها الواعي في التأصيل لمبدأ الإمامة في العقيدة الإسلامية. إن أغلب الصيغ تؤول في نهاية المطاف إلى أطروحة تثبيت قضية الإمامة الشرعية ومركزيتها في العقيدة؛ بوصفها قضية جوهرية وأصلاً متأصلاً في الاعتقاد والإيمان، وطريقاً للخلاص وتبرئة الذمة.

إن التصلية لا ترد؛ إلا في صيغتها الكاملة، التي يمكن إرجاعها إلى ملفوظ بسيط تؤول إليه كل الصيغ المتداولة؛ (اللهم صل على محمد

وَأَلِ مُحَمَّدًا)، حيث تَرَدُّ الصلاة على الرسول ﷺ متبوعة بالصلاة على أهل بيته ﷺ. كما نجد تحذيرات صريحة من الصلاة البتراء: «لَا تُصَلُّوا عَلَيَّ الصَّلَاةَ الْبِتْرَاءِ، فَقَالُوا وَمَا الصَّلَاةُ الْبِتْرَاءُ؟ فَقَالَ: تَقُولُونَ: اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَيَّ مُحَمَّدٌ وَتُمْسِكُونَ، بَلْ قُولُوا: اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَيَّ مُحَمَّدٌ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ»⁽¹⁾.

هذا الأمر يجعل الصيغة ترقى لترتبط بسياق عقديٍّ أعمق. ويكفي لتوضيح هذا الأمر معاينة فقرات من نصوص تصلية متضمنة لأسماء الأئمة محددين ومعيّنين ومرتبين بالطريقة نفسها التي عرفت توليهم الإمامة في حقب تاريخية متعاقبة، حيث نقرأ في دعاء الافتتاح: «اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَيَّ مُحَمَّدٍ عَبْدِكَ وَرَسُولِكَ.. وَصَلِّ عَلَيَّ عَلِيِّ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ، وَوَصِيِّ رَسُولِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، عَبْدِكَ وَوَلِيِّكَ، وَأَخِي رَسُولِكَ، وَحُجَّتِكَ عَلَى خَلْقِكَ، وَأَيْتِكَ الْكُبْرَى، وَالنَّبَأَ الْعَظِيمَ، وَصَلِّ عَلَيَّ الصَّدِيقَةَ الطَاهِرَةَ فَاطِمَةَ الزَّهْرَاءِ، سَيِّدَةَ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ، وَصَلِّ عَلَيَّ سَبْطِي الرَّحْمَةَ وَإِمَامِي الْهُدَى، الْحَسَنَ وَالْحُسَيْنَ سَيِّدَيَّ شَبَابِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَصَلِّ عَلَيَّ أئمةِ الْمُسْلِمِينَ عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ وَمُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ وَجَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ وَمُوسَى بْنِ جَعْفَرٍ وَعَلِيِّ بْنِ مُوسَى وَمُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ وَعَلِيِّ بْنِ مُحَمَّدٍ وَالْحَسَنَ بْنِ عَلِيٍّ وَالْخَلْفَ الْهَادِي الْمَهْدِيَّ؛ حُجَجِكَ عَلَيَّ عِبَادِكَ، وَأَمَانَتِكَ فِي بِلَادِكَ...»⁽²⁾.

فتبدو التصلية ملفوظاً يجسد أمر الإمامة، من خلال التنصيص على أسماء الأئمة ﷺ، وبيان ارتباطهم بخط الرسالة؛ عبر ابنة الرسول ﷺ السيِّدة فاطمة الزهراء ﷺ؛ بوصفها الحلقة الرابطة بين الأئمة وبين الرسالة والنبوة. وذلك بالتركيز على مواصفات تقديسية إجلالية، يُختصون بها ويُعرفون بها، اصطفاهم بها الوحي وجعلها من سماتهم، مستندة إلى سند غيبي، ومرجعية جعلية توقيفية. هذه التوصيفات هي نفسها التي

(1) الفيروزآبادي، مرتضى الحسيني: فضائل الخمسة من الصحاح الستة، ط7، بيروت، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، 1413هـ، ج1، ص268 (باب في النهي عن الصلاة البتراء)؛ نقلاً عن الصواعق المحرقة، ص268.

(2) القمي، مفاتيح الجنان، م.س، ص240.

تتواتر في صِيغِ التّصليّة، وتوظّف في سياقاتٍ مختلفة، لتغدو موضوعة الإمامة والرسالة علامة لغويّة ودعويّة إقناعيّة، موجّهةً وعي المسلم، من أجل تمثّل سرّ هذا الربط والتلازم. فهي بمثابة خطاب عقديّ مختصر يروم ترسيخ فكرة أنّ الرسالة لا تنفصل عن الإمامة، وأنّ لا انفصال بين (الرسول محمّد ﷺ) وبين (الأئمّة عليهم السلام) من بعده. فتكون عنوان الامتثال للأمر الإلهيّ والنبويّ بالصلاة على النبي وعلى الآل: «لا تصلّوا عليّ الصلاة البتراء»، وإشعاراً بأنّ طريق التّعبد لا يوصل إلا بانتهاج سبيل محمّد والأئمّة من بعده.

وتبعاً لذلك، تكون التّصليّة توجيهاً لفظياً دالاً، مراده تثبيت عقيدة الولاء لخطّ الإمامة، القائم على التسليم بإمامة الرسول الأكرم محمّد ﷺ، وعترته من أهل بيته عليهم السلام. فتساهم التّصليّة بصيغها الكاملة المتكرّرة بإلحاح في الأخذ بيد الإنسان وتعريفه مصيره ومصالحه الدينيّة والديويّة؛ لتحقيق «الخلاص القيميّ والمعنويّ الروحيّ؛ بما هي الغايات الكبرى المنشودة»⁽¹⁾.

خامساً: بلاغة الهمس بسرّ التّعبد:

تساهم التّصليّة بصيغتها الرابطة بين النبوّة والإمامة، في خدمة الغايات الإقناعيّة الترشيدية لعقيدة الإمامة الشرعيّة، وفي مقدّماتها ترسيخ هذا المعتقد في المتلقّين، وتربيتهم على التمسك بخطّ الإمامة التي تعدّ امتداداً لخطّ النبوّة والرسالة. فهي تتجاوز مجرد الحلية اللفظيّة، لتصبح بمثابة سمة تكوينيّة في التّصليّة لها وظيفتها التواصلية؛ ترشيداً وإقناعاً، بغية تمثّل الناس لهذا المفهوم وتجسيده عملياً في حياتهم، خاصّة بملاحظة تعمّد التكرار الواعي والهادف لصيغة التّصليّة الكاملة التي يقترن فيها ذكر الرسول ﷺ بأله ﷺ.

(1) قنصوة، صلاح: نظرية القيم في الفكر المعاصر، ط2، دار التنوير، 1984م، ص219.

ويربط العارف روح الله الخميني ربطاً طريفاً بين التصلية وبين البسملة؛ من جانب الوظيفة العقديّة التربويّة، ومن جانب أبعادهما الروحيّة والمعنويّة. فتواتر التصلية في الخطاب الإسلامي بصيغتها الكاملة غير البتراء، يوازي ورود البسملة في مفتتح كلّ سورة من سور القرآن الكريم؛ فالبسملة في القرآن المجيد هي لفتح العالم بما حوى، والكون بما استوعب على الله جلّ جلاله؛ لتنبه كلّ الموجودات وتعريف المخلوقات بحقيقة خلقها الراجعة إليه سبحانه والمتوقفة عليه؛ فلا وجود ولا حقيقة للشيء في ذاته؛ إلا بافتقاره إلى مؤجده وخالقه. أمّا التصلية فهي دليل الربط وطريق الوصول إلى الله؛ فلا إمكان لمعرفة الله -تعالى- أو البلوغ إليه، إلا بمعرفة الرسول ﷺ، ومعرفة الأئمة عليهم السلام من عترته وأهل بيته؛ أي بمعرفة الإمامة الشرعيّة الموصلة إلى النجاة الحقّة⁽¹⁾.

لذلك يشير هذا العارف إلى البعد العمليّ التداوليّ للتصلية، لدورها في تحفيز المسلم نحو السير والسلوك إلى الله، مع التبصّر والفهم الصائب للطريق الواجب أتباعه⁽²⁾.

إنّ التصلية بصيغتها التامة «تذكر العبد السالك حصول التوحيد الحقيقي («اللهم»: توجّه طلبيّ إلى الله وحده مصدر العطاء، فهو منتهى غايات الطالبين)، و«صل»: إعلان الحاجة إلى النبيّ الخاتم والولي المطلق (النبي الأكرم محمد ﷺ والأئمة من أهل بيته عليهم السلام) في هذا المعراج السلوكيّ من المقامات الشاملة التي لا بدّ للسالك أن يتوجّه إليها في جميع المقامات»⁽³⁾.

إنّ السير التعبدي للإنسان في هذه الحياة يستلزم الارتباط والتوسّل بالرسول ﷺ وبأهل بيته عليهم السلام، ف«العبد السالك لا بدّ أن يراقب نفسه،

(1) انظر: الموسويّ الخميني، روح الله: تفسير آية البسملة، محاضرات معرفيّة، ط2، بيروت، دار الهادي، 1420هـ/ق/ 2000 م، ص23.

(2) الموسوي الخميني، روح الله: الآداب المعنويّة للصلاة، عزّبه عن الفارسيّة وشرحه وعلّق عليه: أحمد الفهري، قم، مؤسّسة دار الكتاب الإسلامي، لا ت.

(3) م.ن، ص543.

وألا يقصّر في طاعة الرسول التي هي طاعة الله، وفي طاعة الولي (الإمام) التي هي طاعة الرسول، لئلا يحرم مساعدة الولي المطلق في بركات العبادة، بمساعدة ولي النعم والرسول الأكرم ﷺ والإمام المعصوم المعين، المخصوص بالولاية والطاعة بعد الرسول»⁽¹⁾.

ومن هنا نفهم قيمة التصلية في المنظومة الإسلامية عموماً، ومغزى ترغيب القرآن الكريم⁽²⁾ والأحاديث النبوية الشريفة⁽³⁾، بهذه التصلية، والإلحاح عليها في كل الأوقات والأحوال، حتى اعتبرها القاضي عياض فرضاً عاماً: «اعلم أن الصلاة على النبي فرض على الجملة غير محدد بوقت؛ لأمر الله تعالى بالصلاة عليه»⁽⁴⁾. واعتبرت دعامة لقبول الأعمال في قول علي بن أبي طالب عليه السلام: «إذا كانت لك إلى الله، سبحانه، حاجة فابدأ بمسألة الصلاة على رسوله صلى الله عليه وآله وسلم، ثم سل حاجتك؛ فإن الله أكرم من أن يسأل حاجتين، فيقضي إحداهما ويمنع الأخرى»⁽⁵⁾.

سادساً: التصلية وبلاغة الولاء:

1. بلاغة الاصطفاء الوحياني:

لا يفتأ المصلي في كل مناسبة يخاطب فيها الأنبياء والأئمة عليهم السلام يجاهر بعقيدته، فيقر لشخصية الرسول ﷺ بكونه الإمام الحق، والقائد والولي الشرعي، ويعترف في حضرته بسلطته على الناس وبحتمية الانصياع والقبول بما يدعو إليه، أو ينهى عنه ويحذر منه. فهو معين من قبل الله

(1) م.ن، ص 547.

(2) قوله -تعالى-: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ (سورة الأحزاب، الآية 56).

(3) قول الرسول ﷺ: «الصلاة علي نور على الصراط»، وقوله: «إن أبخل الناس من ذكرت عنده ولم يصل علي» (المتقي الهندي، كنز العمال، ح 2144، 2149).

(4) القاضي عياض، الشفا بتعريف حقوق المصطفى، م.س، ج 2، ص 57-58.

(5) الشريف الرضي: نهج البلاغة (الجامع لخطب الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام ورسائله وحكمه)، تحقيق: أنصاريان، ط 1، دمشق، منشورات المستشارية الثقافية للجمهورية الإسلامية الإيرانية، 1422هـ/ 2007م، ص 638.

ومُرسل من عنده. ومن ثمّة، فاخياراته وتوصياته بشأن قضايا المجتمع والسياسة تكون جزءاً من قداسته وسلطته، وهي تستوجب حتماً التنفيذ والاتباع والطاعة، وإلا فإنّ في مخالفتها مساساً بجوهر الاعتقاد لدى الفرد. في مقطع يخاطب فيه الرسول ﷺ: «بأبي أنت وأمّي يا رسول الله، زُرْتُكَ عَارِفًا بِحَقِّكَ، مُقَرَّمًا بِفَضْلِكَ، مُسْتَبْصِرًا بِضَلَالَةِ مَنْ خَالَفَكَ وَخَالَفَ أَهْلَ بَيْتِكَ، عَارِفًا بِالْهُدَى الَّذِي أَنْتَ عَلَيْهِ...»⁽¹⁾، يُستحضر الأئمّة من آل الرسول، ويتمّ الإقرار في حضرتهم بمكانتهم والاعتراف بجلالة قدرهم: «اللهم يا مَنْ خَصَّ مُحَمَّدًا وَآلَهُ بِالْكَرَامَةِ، وَحَبَاهُمْ بِالرَّسَالَةِ، وَخَصَّصَهُم بِالْوَسِيلَةِ، وَجَعَلَهُمْ وَرَثَةَ الْأَنْبِيَاءِ، وَخَتَمَ بِهِمِ الْأَوْصِيَاءَ وَالْأئمّة، وَعَلَّمَهُمْ عِلْمَ مَا كَانَ وَمَا بَقِيَ، وَجَعَلَ أَفئدةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ»⁽²⁾.

فيتبيّن أنّ المتحدث يحتاج لأفضليّة هذه الشخصيات؛ بالاستناد إلى سلطة الغيب، والاتّكاء على معطيات الوحي؛ بما هو سلطة نصيّة فاعلة وحاسمة في مخيال كلّ فرد مسلم.

فهو يجعل الأفضليّة المطلقة لهذه الشخصيات قائمة على حجة الاصطفاء الربّانيّ الذي لا مجال معه للاختيار الشخصي. فالرسول ﷺ والأئمّة من آل البيت عليهم السلام أناس منتظمون ضمن مبدأ (الجعل) الإلهي، ولحقيقة التعيين الفوقيّ التوقيفيّ، الذي لا تدخل ولا خيار فيه للإنسان؛ إلاّ القبول بما ارتضاه الله واختاره.

2. بلاغة التوصيف التفضيليّ:

تنزع كثير من نصوص التصليّة منزع انتصار المصليّ لرؤيته العقديّة ولاختيارات خاصّة تجد مرجعيّتها في مقرّرات الوحي وتوجيهاته بشأن تفضيل الشخصيات المخصوصة بالتصليّة وأهليّتها؛ لأنّ يُفتدى بها وتُتولّى

(1) القمي، مفاتيح الجنان، م.س، ص392.

(2) الصحيفة السجّاديّة الجامعة للإمام علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام، تأليف وتحقيق: محمد باقر الموحّديّ الأبطحيّ، ط2، بيروت، دار الصفوة، 1412هـ-ق/ 1992م، ص43.

دون سواها. ويتم ذلك من خلال جملة من الأوصاف التي ينتقيها المتحدث بدقة ويضيفها على مخاطبيه؛ بما يجعل منهم شخصيات تستلزم الركون إلى جانبها والاصطفاف إلى معسكرها؛ بوصفها مجمع الفضائل الحميدة: «أَنْتَ أَحْسَنُ الْخَلْقِ عِبَادَةً، وَأَخْلَصَهُمْ زَهَادَةً، وَأَذَبَهُمْ عَنِ الدِّينِ، أَقَمْتَ حُدُودَ اللَّهِ بِجُهْدِكَ، وَقَلَلْتَ عَسَاكِرَ الْمَارِقِينَ بِسَيْفِكَ، تَخَمَدُ لَهَبَ الْحُرُوبِ بِنَانِكَ، وَتَهْتِكُ سُتُورَ الشُّبهِ بِبَيَانِكَ، وَتَكْشِفُ لُبْسَ الْبَاطِلِ عَنْ صَرِيحِ الْحَقِّ، لَا تَأْخُذُكَ فِي اللَّهِ لَوْمَةٌ لَائِمٌ»⁽¹⁾.

حيث يسطر المصلي جملة شمائل ومواصفات مثالية وحيائية، تغدو بموجبها الشخصيات المخاطبة في التصلية مقدمة على من سواها، ومهيأة لتحمل أعباء العمل الرسالي، والاستعداد للتضحية وتحمل المصاعب والمشاق؛ بما تتميز به كمالات مادية ومعنوية:

«الدَّافِعُ حَيْثِيَاتِ الْأَبَاطِيلِ، وَالدَّافِعُ صَوْلَاتِ الْأَضَالِيلِ... أَضَاءَ الطَّرِيقِ لِلْخَابِطِ.. فَهُوَ أَمِينُكَ الْمَأْمُونُ وَخَازِنُ عِلْمِكَ الْمَخْزُونُ»⁽²⁾. وهو «أَمِينُكَ عَلَى وَحْيِكَ، وَنَجِيبُكَ مِنْ خَلْقِكَ، وَصَفِيُّكَ مِنْ عِبَادِكَ، إِمَامُ الرَّحْمَةِ، وَقَائِدُ الْخَيْرِ، وَمِفْتَاحُ الْبَرَكَةِ».

هذه التوصيفات تجعل من المخاطب شخصاً يستمد أفضليته من تصديه لتنفيذ برنامج الإصلاح في المجتمع الإنساني، ومن مبادرته للقضاء على صور الباطل وأنواع الانحراف.

إن حجة الأفضلية المعتمدة في المحاجة راجعة إلى السبق في مجال التضحية؛ من أجل رفع الظلم وإقامة العدل والاستعداد لتحمل كل الصعاب: «وَأَشْهَدُ يَا مَوْلَايَ أَنْكَ نَهَضْتَ بِأَعْبَاءِ الْإِمَامَةِ وَاحْتَدَيْتَ مِثَالَ النَّبُوَّةِ فِي الصَّبْرِ وَالْجِهَادِ وَالنَّصِيحَةِ لِلْعِبَادِ وَكَطَمِ الْغَيْظِ وَالْعَفْوِ عَنِ النَّاسِ»⁽³⁾. وعلى هذا المنوال يكون جميع الأشخاص الذين يقصدهم المصلي ويسلم عليهم،

(1) القمي، مفاتيح الجنان، م، س، ص 446.

(2) الصحيفة العلوية المباركة (أدعية الإمام علي عليه السلام)، جمع: عبد الله بن صالح السماهيجي، ط1، بيروت، دار المرتضى، 1418هـ/ق / 1997 م، ص 54-55.

(3) القمي، مفاتيح الجنان، م، س، ص 653.

حائزين أفضليتهم ومكانتهم من الله، فهم حجج الله، مكلفون بوظائف تضمن نصره الدين وهداية البرية وتعليم الناس وترشيدهم (نبي الله - رسول الله - صفوة الله - صفيّه - خيرته - سيّد الأوّلين - مطهر - طاهر - أذهب الله عنهم الرجس - طهرهم - الطاهرات - أصحابك الطيبين...).

ويبدو التركيز على التوصيفات المميّزة لشخصيّة الرسول ﷺ والأئمة والصالحين عليهم السلام، خطة فنيّة واستراتيجية بلاغيّة، واضح نفسه الإقناعي؛ تروم ترسيخ حقيقة أفضليّة هؤلاء، وخصّهم بالتقديم على مَنْ سواهم؛ بوصفهم نماذج بشريّة معنيّة بالتقديم والثناء والتقدّيس، في أفق الارتقاء بها إلى موقع القدوة المستحقّة منصب الإمامة، الواجب اقتفاء خطاها في الإيمان والأخلاق.

يدرك المصليّ إذن، أنّ هؤلاء الأشخاص هم بعبارة ألفرد بل: «المقرّرون بقرار إلهي... ولهم مكانتهم الدينيّة... من عترة النبي»⁽¹⁾، و«الوارثون لمكانته السامية، وعلومه ومناقبه الروحيّة الخاصّة»⁽²⁾، لهم ارتباط نسبيّ بالبيت النبويّ، وهم تبعًا لذلك ذوو مسؤوليّات ترشيديّة وتخليقيّة تبدو إلى حدّ كبير امتدادًا لمسؤوليّات الرسول ﷺ. فهم مَنْ يضمن «سلامة الهداية الدينيّة للأمة الإسلاميّة من الناحية الروحيّة»⁽³⁾.

وارتباطًا بأجواء التصليّة وبسياقها التعبديّ المحكوم بروحانيّة الإيمان، وبمهابة المخاطب المجلّل بالقداسة والتقوى، فإنّ المصليّ يستند غالبًا إلى سرد معايير ووقائع أهلت الشخصية المخاطبة لتكتسب سمات من التميّز والتفوّق، وتبعًا لذلك تُستدعى في سياق تفضيليّ يوجب تحقّق الإدعان لجلال هذه القداسة والتسليم لكمالها؛ ما يجعل منها حجة مقنعة نافذة التأثير. نقرأ في زيارة النبي ﷺ عن بعد: «... غَمَسْتَهُ فِي بَحْرِ

(1) بل، ألفرد: الفرق الإسلاميّة في الشمال الإفريقيّ، من الفتح العربيّ حتّى اليوم، ترجمه عن الفرنسيّة: عبد الرحمن بدوي، ط3، بيروت، دار الغرب الإسلاميّ، 1987م، ص152-153.

(2) م.ن، ص153.

(3) م.ن، ص.ن.

الفضيلة والمنزلة الجلية والدرجة الرفيعة، والمرتبة الخطيرة، وأودعته
الأصلاب الطاهرة، ونقلته من الأرحام المظهرة، لطفًا منك له وتحننًا منك
عليه. إذ وكلت لصونه وحراسته وحفظه وحياطته من قدرتك عينًا عاصمةً،
حجبت بها عنه مدانس العهر ومعائب السفاح حتى رفعت به نواظر
العباد، وأحييت به ميث البلاد، بأن كشفت عن نور ولادته ظلم الأستار،
وألبست حرمك به حلل الأنوار»⁽¹⁾.

حيث يتمثل المخاطب شخصية مثالية، مقدسة بكمالها وبطهرها،
وبمواصفاتها المعجزة المستمدة من الغيب. وهذه في حد ذاتها حجج
مقنعة تستند إلى سلم القيم الإيجابية التي تعد من المشتركات المتفق
عليها، غير القابلة للرد أو التشكيك. وتبعًا لذلك يتحيز المصلي إلى هذه
الجهة المخصوصة بالتصليّة والسلام، ويعينها أو يفردا بالثناء والاعتراف،
مانحًا إيها مركز السبق والأفضلية على من سواها، موقنًا أنها بحق تمثل
نظرته الإيمانية، وتماشي قناعاته العقديّة، فيعتبرها وحدها الكفيلة بتحمّل
المسؤولية الكبرى في القيادة والولاية:

«السّلام عليكم أئمة الهدى، السّلام عليكم أهل التّقى... أشهد أنّكم
الأئمة الرّاشدون المهديّون، وأنّ طاعتكم مفروضة، وأنّ قولكم الصّدق،
وأنّكم دعائم الدّين، وأركان الأرض... من بكم علينا ديان الدّين،
فجعلكم في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه»⁽²⁾. فالمخاطبون
-بنظر المصليّ- أشخاص على مستوى من التّميّز والفرادة، مخصوصون
بالإمامة وبالقيادة وهداية الناس؛ لأنّ سماتهم الصّدق والتقوى وجماع
الخير كلّهم فهم مجعولون من الله لحراسة دينه وتنفيذ برنامجه. لذلك
كانت طاعتهم واجبة ومفروضة، بحجة الجعل الإلهي وبسلطة الوحي
والانتداب الربّانيّ.

(1) القمي، مفاتيح الجنان، م.س، ص 393.

(2) الجوهرجي، محمد صالح: ضياء الصالحين في الأدعية والأعمال والصلوات والزيارات، ط1، بيروت،
مؤسسة الأعلميّ للطبوعات، 1418هـ/ق/ 1998م، ص 485.

خاتمة:

لقد بدا خطاب التّصليّة في التراث الإسلاميّ إذن، شكلاً تعبيرياً بسيطاً ومختزلاً، ثريّ بطاقات تعبيرية هائلة، وسالكا نهجاً بلاغياً نوعياً؛ ما منحه هويّةً تواصليةً خاصّة، جعلته يرتقي إلى أن يكون بوابة تربويّة اعتمدت لترسيخ العقيدة الحقّة في نفسيّة المؤمن، خاصّة عبر صيغة التّصليّة الكاملة غير البتراء، التي تقترن فيها الصلاة على الرسول والصلاة على أهل بيته. وقد تبين أن أطروحة الإمامة الشرعيّة تشكل جوهر التّصليّة الإقناعيّ وغاياتها التّأثيريّة، التي تهمس للمؤمن بتلازم خطّي الإمامة والرسالة. وبذلك تتجاوز التّصليّة مجرد كونها صيغة من صيغ الذّكر الحسن، لتغدو علامة لغويّة ورسالة حجاجيّة تروم توجيه السلوك وتغيير القناعات في سبيل بناء الشخصية المؤمنة الولائيّة.